إن الكاتب بذل مجهودات جبارة، في سبيل أن يقترب من المسرح، نوفق في احيان كثيرة، كما اسلفنا، وطاشت رميته في أحايين كثيرة... لجاء ذلك العناء والنصب، على حساب العمل ككل. وكانت كلمته «حكايات مسرحية» بالنسبة لاناس اخرين، غير من ذكرناهم في البداية، مجرد ضربة شاطر، اصابت مرة ولم تصب مرات. كانت مما يشبه حسن التخلص الذكي، منذ البداية، ولكنه تخلص قد لا ينطلي على كل «عتيق» في «الصنعة»...

جاءت الحوارات طويلة، وطويلة جدا أحيانا، برغم اللمعات الشعرية الرائعة، وبرغم ما أشرنا إليه من لغة مخصوصة ومميزة للكاتب. كذلك، جاءت الشخصيات، أحيانا، تطيف في غبش، لست تدري أهو غسق أم غلس... هذا إذا وضعنا جانبا صعوبة تحويل العمل ككل إلى المسرح، ان لم نقل استحالة تحويله، قبل أن «يمنتج ويمسرح» ويتوزعه اصحاب الاختصاصات كل موزع، فلا يبقون منه إلاّ على أثر ضئيل، قد يبدو نوعا من اعادة الصياغة الجديدة، التي ستسيء إلى «صاحبنا لكع» إساءة وأيّما إساءة.

فلماذا الاصرار على المسرح بالذات؟!

ومن يقارن بين فصل «فلافل. فلافل!» مثلاً الذي لم يبالغ فيه الكاتب، أو لم يول قضية المسرحة كبير اهتمام، فانهــا غـايــة في العذوبة، وككلمة «على الرحب والسعة» الجميلة والمكتملة في بداية العمل. من يقارن هذا الفصل بـ«بدر... كلهم وبدي بدر...» فيما بعد، حيث الاطالة حدّ التعب، ولا نريد أن نقول الإملال، والاصرار على «المسرحة» الذي بدا غير مبرر. لا بد وأن يصاب بما يشبه الخيبة والحزن الكثير.

لماذا يصر كتّابنا، حين ينجحون، وتسلم لهم هبوات الشهرة نواصيها، على ترك المجال الذي حصلوا فيه على عصا السبق، إلى مجالات أخرى في نوع من الاصرار المعاند والغريب. أم اننا، كعرب، قدر علينا، ألاّ نفرح طويلاً بكاتب كبير وعلى المستوى الحضاري المطلوب. حتى اننا لنجد، ان أهم كتاب الرواية عندنا، توهجوا في البدايات، قدموا اعمالاً رائعة، أو بلغت حدود الروعة، وفجاة، تملكهم ما يشبه الغرور، «فغزبوا وشرّقوا» في ميادين ليست ميادينهم، أو انهم تعبوا قبل الاوان.

فالطيب صالح كان أفضل أعماله: «موسم الهجرة إلى الشمال»: وعبدالرحمن منيف، كان أفضل اعماله: «الاشجار واغتيال الزورق»، اما نجيب محفوظ فبعد توهجه الهائل في البدايات، أسلم نفسه إلى كل ريح، وانتهى به الامر، واحدا على غرار احسان عبدالقدوس أو يوسف السباعي، مع الاحتفاظ بالفوارق القليلة الباقية بينه وبينهم.

تقديرنا ان اميل حبيبي لا يزال، برغم اكتهال الايام، يحمل إلينا أكثر من وعد طيب. ان تميزه وطبيعة معاناته، وغنى اطلاعه، كل هذه الاشياء، لا بد وأن تجنبه العثرات...

و«لكع بن لكع» يظل عملاً طيبا، برغم الهنات الهينات التي اشرنا إليها. يظل له نكهة اميل حبيبي المخصوصة. ولو كان لي «عز اصول به» لاعدت كتابته من جديد، كقصة طويلة، وألقيت بالمسرح ومن يمسرحون إلى سقر...

عاصم الجندي